وباء الطاعون وتأثيره على البنية الاجتماعية الجزائرية خلال الحقبة العثمانية

The plague epidemic and its impact on the Algerian social structure during the Ottoman era

الكاملة فرحات *

جامعة الشهيد حمّه لخضر– الوادي

ferhat-kamla@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/02 تاريخ القبول 2022/09/06 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص

نسعى في هذه الدراسة إلى ابراز انعكاسات وباء الطاعون على البنية الاجتماعية الجزائرية، ومن أهم النتائج المتحصل عليها هو ارتباط الوباء بانضمام الجزائر بالخلافة العثمانية كونه كثير الانتشار في المشرق، كذا مساهمة الوافدين من المشرق العربي في نقله، كما أن عدم استجابة المنظومة الصحية في الجزائر العثمانية للمستجدات أدى إلى استفحال الوباء وتوسيع رقعة الاصابات، علاوة على غياب الاجراءات الوقائية خاصة النظافة، كما نؤكد توصلنا إلى كون المرض ساهم في تراجع النمو السكاني وفكك تركيبته، وزيادة مظاهر البؤس والفقر، دون أن نهمل دور الوباء في تكريس الركود الحضاري العلمي وانتشار الآفات.

الكلمات المفتاحية: الطاعون؛ الوباء ؛ البنية الاجتماعية ؛ الحقبة العثمانية ؛ المجتمع الجزائري.

Abstract:

In this study, we seek to highlight the repercussions of the plague epidemic on the Algerian social structure. The developments led to the

* المؤلف المراسل

exacerbation of the epidemic and the expansin of the area of injuries, in addition to the absence of preventive measures, especiqlly hygiene, and we confirm that the disease contributed to the decline in population growth and the dismantling of its composition, qnd the increase in manifestation of misery and poverty, without neglecting the role of the epidemic in perpetuating the scientific civiliwqtion stagnation and the spread of pests.

key words: : plague; epidemic, social structure; Ottoman era; Algerian

1–مقدّمة:

عرفت الجزائر منذ بدايات القر16م تقهقرا صحيا واضحا عبر عنه ظهور وباء الطاعون وانتشاره بل وتواتره الزمني إلى غاية القرن 19م كنتيجة حتمية لمتغيرات الأوضاع العامة في الجزائر مما أثر على البنية الاجتماعية الجزائرية بشكل كبير، الأمر الذي يدفعنا للتساؤل ما هي ماهية هذا الوباء؟ وما الأسباب المساهمة في ظهوره؟ وما أثاره؟

ونهدف من دراسته إلى تعريف مرض الطاعون والإحاطة بأسباب ظهوره في الجزائر واستخلاص أثاره على المجتمع معتمدين على المنهج التاريخي في تقصي مفهوم الوباء، واستحضار أسبابه، والاستعانة بالمنهج الاحصائي في تتبع النتائج الديمغرافية للوباء.

2 – الطاعون في الجزائر العثمانية من 1518م إلى سنة 1830م:

الطاعون: هو مرض معدٍ، كان يظهر على شكل وباء، ويصنف من أخطر الأوبئة التي أصابت العالم، ويعرفه الجزائريون باسم "الحبوبة"، ومعناها باللاتينية "الموت الأسود". وسبب ظهوره جرثومة اليارسين التي تتكاثر في أجساد بعض القوارض لاسيما الفئران، ويعتبر من الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان، وينقسم إلى 3 أنواع الطاعون الخمجي والحيواني والرئوي، وهذا حسب التفسير العلمي. أنا من ناحية التفسير الديني للطاعون فيرجع المؤرخون ظهوره في منطقة ما إلى ظاهرة الانحطاط الأخلاقي وانتشار الفاحشة، حيث يعتبرون الأمر إنذارا إلاهيا، ولقد استشهد علماء الإسلام في ذلك بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنو بها، إلا فشا

فيهم الطاعون والأوجاع لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»، كما عرفة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في موضع أخر فقال: « الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة»، وفي موضع أخر أجاب سائليه عن الطاعون قائلا إنه: « غدة كغدة البعير المقيم بها كالشهد والفار منها كالفار من الزحف»، وقال أيضا: « المبطون شهيد والمطعون شهيد»، وكذلك قال: « إذا نزل الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا إليها»[1].

ولقد تعرضت إيالة الجزائر خلال العهد العثماني كغيرها من الأقطار المغاربية والمشرقية والأوربية مرارًا إلى وباء الطاعون، ويرجع تاريخ ظهوره في الجزائر العثمانية إلى عام 1541م، واستمر في الظهور لفترات معينة حتى أصبح مرضا مستقرا متوطنا بها إلى غاية سنة 1822م[2]، وتقول المصادر التاريخية في هذا الشأن أن هذا الوباء كان يظهر في الجزائر مرة كل 15 أو 25 سنة[3].

ويعود تاريخ ظهور وباء الطاعون بمدينة الجزائر خلال الحقبة العثمانية أول مرة في سنة 1552م، وقد اتفق المؤرخون في دراسة الأمراض المعدية في الجزائر على أن هذا الوباء لم يكن وليد البيئة الجزائرية، بل غريبا عنها، نقل إليها عن طريق العدوى من منطقة الشرق الأوسط فاستوطن بها، وهذا ما أكده تقرير الجاسون بوتان[4] الذي قدمه عن الجزائر سنة 1808م[5]، حيث جاءها عن طريق الأسطول الذي أرسله السلطان العثماني لمؤازرة صالح رايس[6] بايلرباي الجزائر في حروبه ضد الاسبان، ومن ثمة عرف الوباء انتشارا واسعا في مدينة الجزائر والمناطق الغربية من البلاد والشريط الساحلي. وقد قدر عدد ضحاياه 9 ألاف وكان صالح رايس من ضحايا عام 1556م، ومنذ ذلك العهد أصبحت الجزائر تتعرض للوباء بصفة متقطعة[7].

2- العوامل المساعدة على ظهور وانتشار وباء الطاعون في الجزائر العثمانية:

أ – العوامل التي ساعدت على ظهوره: لقد تظافرت عدة عوامل ساهمت في ظهور وباء الطاعون داخل إيالة الجزائر نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- **عدم اهتمام الحكام الأتراك بالصحة:** إن عدم اهتمام الحكان الأتراك في الجزائر بالجوانب الاجتماعية وخاصة الصحة، أدى هذا إلى حدوث أزمات وتفاقمها على المجتمع الجزائري منها تكاثر الأمراض، واستمر ذلك الاهمال حتى سقوط البلاد بيد فرنسا سنة 1830م، وبالتالي فإن عدم اهتمام العثمانيين بالشؤون الصحية كان سببا في عدم بناء المستشفيات، ونتيجة إهمالهم لمهنة الطب أصاب وباء الطاعون مدينة الجزائر مرات عدة وفي سنوات مختلفة[8].
- **الجراد:** يقول البعض أن سبب تكون هذه الجرثومة يعود إلى تلوث وتسمم الجو بفعل الرائحة الكريهة المنبعثة من جثث الجراد المتعفنة التي تنتشر في الجو بعد كل زحف للجراد على البلاد، ففي الكثير من الأحيان كان وباء الطاعون مسبوقا بزحف للجراد، وقد أثبتت الدراسات التاريخية أن خلال الفترة العثمانية من القرن 16 إلى 19م، كان دائما زحف الجراد يتبعه انتشار رهيب لوباء الطاعون، خاصة سنوات 1556 – 1572 – 1620 – 1647 – 1698 – 1724 – 1749 – 1787 – 1815 – 1817م[9].
- **رطوبة المناخ:** إن الرطوبة تعتبر عامل مساعد على تكاثر البراغيث المعدية التي تعتبر المتسبب الأول في ظهور وانتشار وباء الطاعون[10].
- **السجون:** كانت سجون مدينة الجزائر في غالب الأحيان وسخة وقليلة التهوية تنتشر فيها الفئران الناقلة لمرض الطاعون[11].
- **الأسطول الجزائري:** إن الطاعون الذي شهدته الجزائر بشكل مستمر خلال الحقبة العثمانية كان مرتبطا بحركة الأسطول الجزائري واحتكاكه الدائم بموانئ المشرق التي كانت مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون[12].

- **موانئ المشرق:** إن أغلبية الأوبئة ولا سيما الطاعون الذي تعرضت له الجزائر خلال الفترة العثمانية كان مصدرها موانئ تركيا ومصر التي كانت مرتبطة بالموانئ الجزائرية[13]، حيث كان وباء الطاعون ينتقل إلى الجزائر من السفن التي كانت ترسو في موانئ المدن التي تجلب معها الوباء، ويؤدي ذلك إلى موت السكان بعد شرائهم الأمتعة والملابس القديمة التي ينتشر فيها المرض[14].

ب العوامل التي ساعدت على انتشاره في إيالة الجزائر العثمانية:

من العوامل التي ساعدت على انتشار وتمركز وباء الطاعون بالجزائر العثمانية هو وجود المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن[15]، اضافة إلى كثرة الأوساخ والقاذورات في الأحياء الشعبية[16]، وكانت تنتقل عدوى هذا الوباء إلى الإنسان عن طريق لسعة قمل مصاب، ومن إنسان إلى أخر عن طريق التنفس وتبادل الأشياء بين الشخص المصاب وغيره. أو عن طريق المكوث في أماكن إقامة المصابين لأن هذا الوباء كان سريع العدوى خاصة إذا وجد عوامل مساعدة على انتشاره خاصة انعدام نظافة الجسد والمحيط الذي يتسبب في نمو الحشرات الطفيلية على الإنسان[17].

ومما سهل انتشار هذا الوباء في الجزائر هو حركة السكان المستمرة وتنقلاتهم الدائمة بين الداخل والخارج من جهة، وبين الأقاليم الداخلية من جهة أخرى، حيث حملت العدوى عن طريق الحجاج العائدين من الأماكن المقدسة بالحجاز وطلبة العلم والتجار القادمين من منطقة الشرق في مواسم حدوث الوباء، وبمجرد وصولهم إلى الجزائر ينتشر وباء الطاعون وسط السكان، فتصاب المدن والأرياف والجبال بسبب الهجرات الداخلية وحركة السكان[18].

ومما زاد الأمر سوءا وانتشار الوباء أن تطبيق نظام الحجر الصحي لم يكن قاعدة صحية أو وسيلة وقائية التزم بها النظام الحاكم خلال كل الفترة، ومما زاد في خطورة هذا الداء

وتفاقمه هو موقف الأهالي أن التوكل على الله والايمان بالقضاء والقدر جعلهم يقللون من شأن اجراءات[19].

3 – أثار الطاعون على البنية الاجتماعية الجزائرية:

أ – الانهيار الديمغرافي: خلال العهد العثماني شكل الطاعون أخطر مرض عانت منه كل الفئات الاجتماعية بالجزائر، وتكرر ظهوره مما أدى إلى انهيار ديمغرافي رهيب لأنه كان يصيب الأماكن ذات الكثافة السكانية المرتفعة، وتسبب في تدهور الوضع الصحي الذي أثر سلبا على اقتصاديات البلاد تاركا تشوهات خطيرة في البنية الاجتماعية الجزائرية وتراجع ديمغرافي كبير[20]، حيث تسبب في موت أعداد كبيرة من السكان في المدن والأرياف وهلكت الماشية والرعاة[21].

وهذه نماذج لأهم الفترات التي تسبب فيها الوباء بالتراجع الديمغرافي:

ففي القرن 16م أودى الطاعون بحياة ألاف السكان من مدينة الجزائر، وذهب ضحيته أربعة باشوات من بينهم صالح رايس[22]، والحاكم حسين أغا[23] الذي توفى به في سنة 1544م في شهر سبتمبر عن عمر ناهز 56 سنة، واشتدت وطأته خلال ثلاث سنوات إلى غاية سنة 1545م، ومن شدة خسائره البشرية غادر الاسبان مدينة وهران، كما توفى به خير الدين بربروس جراء وباء سنة 1548م[24].

وكانت سنة 1572م أكثر السنوات تأثرا بالطاعون، إذ هلك من جرائه ثلث سكان إيالة الجزائر حسب بعض الروايات.

وطيلة الربع الأخير من القرن 16م ظل الطاعون ظاهرة مؤثرة في المجتمع، حيث لم يتراجع مدة ستة سنوات 1575 – 1582م، حتى ظهر من جديد مع حلول المجاعات التي اجتاحت الجزائر عام 1582م، ثم ازدادت حدته لتصل أوجها عام 1584م والذي سمي بعام "**الطاعون**" لكثرة الموتى.

ثم عاد بحدة خلال سنوات 1590 – 1595م، فتسبب في تراجع ديمغرافي لا نستطيع تقدير حجم خسائرة البشرية لانعدام الأرقام الموثوق بها.

وخلال القرن 17م ظهر الطاعون بالجزائر باستمرار وعرف باسم الطاعون التكراري، ومن ثمة تعاقبت أوبئة الطاعون باستمرارية مثير للدهشة، وعانت خلالها إيالة الجزائر من اجتياحه لمدة لا تقل عن 70 سنة معدية، وانتشر فيها كما يلي:

- من سنة 1601 إلى 1614م، حيث بلغ فيها الطاعون أوجه خاصة سنة 1605م، وكان عدد الأموات يوميا نحو 700 فرد، وكان مصدره في هذه السنوات المجاعة والجفاف.
- من سنة 1620 إلى 1630م فترة عودة الطاعون المعروف باسم "الحبوبة الكبيرة"، وكان يتصف بالحدة والانتشار، فعم الحواضر والأرياف الجزائرية[25]، وحسب أحد المصادر، فإن الوباء الذي اجتاح مدينة الجزائر في سنة 1621م خلف ما بين 50 إلى 60 ألف ضحية[26].
- من سنة 1634 إلى 1636م انتشر الوباء بقسنطينة.
- من سنة 1639 إلى 1649م حيث تعاقب الطاعون على الجزائر وقسنطينة وبسكرة، وزاد من حدتها زلزال عام 1639م والذي صاحبته مجاعة مهلكة[27]، وميزة هذا الوباء أنه انتقل إلى المناطق الجنوبية حيث توقف بمدينة الزيبان بسكرة التي قتل فيها نحو 70 ألف فرد لدرجة أن الرحالة المغربي أبو سالم العياشي[28] الذي مر ببسكرة أثناء عودته من الحج فقال عن مدينة سيدي عقبة مايلي: « فوجدنا أكثر حوماتها خالية، ومساجدها داثرة»[29].
- من سنة 1654 إلى 1666م، وقد بلغ أشده عام 1661م، إذ قضى على حوالي ثلث سكان مدينة الجزائر وحدها، وقد أطلق عليه السكان اسم "الكنية" أو "الطاعون الكبير"، وعرف باسم "الحبوبة الكبيرة أو القوية".

- من سنة 1673 إلى 1702م شهد ظهور أوبئة الطاعون التكرارية بنسبة 29 سنة معدية، أهمها عام "البرورو" سنة 1691م، مما يدل على فداحة الخسائر البشرية.

وخلال القرن 18م استقر الطاعون مدة 63 سنة في مدينة الجزائر وحدها، في سنوات متفرقة، ولقد قدرت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر عام 1740م ما بين 200 و400 وفاة يوميا[30].

وفي عنابة ظهر الوباء بها سنة 1786م، إلاَّ أن أثره كان شديد الوطأة على التركيبة السكانية، حيث قضى على أكثر من نصف سكان مدينة القالة والنصف الأخر من سكانها هاجروا من المدينة إلى غيرها، وامتد أثره هذا إلى مدينة الجزائر سنة 1787م[31]، ونجم عن ذلك ضخامة أعداد الوفيات التي قدرت ب 16721 شخصا في مدينة الجزائر وحدها[32]، فكان الضحايا من الأطفال الذين قضى عليهم هذا الوباء في شهر واحد بمدينة الجزائر قدر بأربعمائة طفل[33]، أما في ضواحيها فقد أودى بحياة خمس السكان[34]. كما وصل هذا الوباء في نفس السنة إلى بايلك الغرب وكان أشد فتكا، حيث مس سكان تلمسان ومعسكر على الخصوص، وقد خرج الرحالة المغربي الزياني[35] صاحب "الترجمانة الكبرى" من تلمسان هروبا منه، لأنه كان حسب وصفه عاما في العمائر بين هذه المدينة وبين الجزائر، فقد أخلى البلاد وأفنى أهلها من شدته حتى أن الزياني ما مر بمنزل إلا وجد أهله يدفنون موتاهم[36].

وخلال الربع الأول من القرن 19م شهدت الجزائر أخر وباء خلال الفترة المدروسة كان وباء 1817 – 1822م، حيث يعد أكبر كارثة عرفتها الجزائر ، إذ وصل حتى مشارف الصحراء[37]، ويعتبر أقسى وباء قاري عرفه إقليم شمال إفريقيا فقد أعتبر كارثة ديمغرافية حقيقية[38]. ونتج عنه أن مات 13330 شخص، من بينهم 5550 ضحية في سنة 1817م، منهم 2048 ضحية في مدينة الجزائر وحدها، وفي مدة شهر فقط بمعدل 150 وفاة في اليوم[39].

وقد علق أحمد الشريف الزهار عن ضحايا وباء سنة 1818م فقال: « بعد شهرين ونصف من ولاية حسين داي 1234هـ – 1818م، كان الوباء قد اشعلت ناره، وفي سفرنا للحجاز، وقت الضحى، وصلت مائة جنازة»[40].

كل هذه الضربات التي تسبب بها وباء الطاعون في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني والخسائر البشرية الضخمة كانت وراء الانهيار الديمغرافي الرهيب والذي عطل كل ميادين الحياة.

ب – تدني المستوى المعيشي: إن الأوبئة في أغلب الأحيان وخاصة وباء الطاعون تكون مصحوبة بموجات القحط والمجاعات، وتختفي فيها الأقوات من السوق ويهلك الناس نتيجة الجوع والمسغبة، مما يجعل الحالة المعيشية لا تطاق ولا تحتمل، ومن ذلك وضعية الأسعار ومستوى المعيشة لارتباطهما بالأحوال الزراعية وتأثرها بالحالة الصحية، وفي هذا الشأن فقد عرفت الجزائر انتشار الطاعون لسنوات 1799م- 1804م متتالية، واشتدت وطأة المجاعة التي عانى منها السكان معاناة كبيرة[41].

كما أن وباء الطاعون الذي أصاب مدينة الجزائر مرات متكررة كان سببا مباشرا في الركود التجاري والصناعي بالمدينة، لأنه فتك بمئات الصناع والتجار وترك السوق مفتوحة للتجار الأجانب لتصدير الانتاج المحلي[42]، فقد سجل في عام 1787م ارتفاع كمية الصوف المصدرة إلى الخارج من مدينتي عنابة والجزائر، لأن عددا من النساجين راحوا ضحية الوباء الذي اجتاح البلاد[43]، وعلق عن ذلك كله حمدان خوجة (ت 1845م) وهو أحد أعيان مدينة الجزائر قائلا: « لقد حضرت في مدة حياتي وهي تنيف عن الستين وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين، وكان مجموع تلك المحنة عشرين سنة، فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء ممتحنة، فأقفرت معالم البلاد، وتشوشت أحوال البلاد، واضمحل العلم وذوو الاستعداد، وانقرض من الفكر من كان عدة في العمران والفلوات ... ففشي فيها يومئذ الفساد واكتهل واتسع الخرق، ولم تبقى للراقع

محل، فيالها من زرية تقشعر لها الجلود الحساسة، ويالها من خسارة ومبدؤها إيراد ممرض على مصح »[44].

ج – الهجرة والتشتت في البلاد: في سنة 1786م حل الطاعون ببايلك الغرب، بعد سنوات من المجاعة[45]، فاضطر الباي محمد الكبير[46] إلى مغادرة مدينة وهران، والإقامة بسهل ملاتة قرابة ثلاثة أشهر إلى أن زال المرض، وفي هذا المضمار يقول صاحب كتاب أنيس الغريب والمسافر ما نصه: «... وحدث في أيامه الطاعون ومات به الجل من الناس والعلماء بأهله ومخزنه فارًا منه وظعنوا ضعُون الأعراب البادية زمنا طويلا»[47]، وقد جعل الباي خيمة حمراء من الوبر وأدار بها الزمالة ثم الدوائر، حتى سمي العام بعام "**الخيمة الحمراء**".

وفي عام 1794م أصاب بايلك الغرب وباء الطاعون وعرف "**بطاعون عثمان**"، وسمي بذلك لأنه اجتاح عائلة عثمان[48] الذي كان يشغل منصب خليفة والده الباي محمد الكبير، فكان يقال "**عام حبوبة عثمان**".

ومن جهة أخرى فضل سكان الأرياف الهروب إلى المناطق التي لم يصلها الطاعون حتى ولو كانت بعيدة عنهم، وهو ما أثر سلبا على الوضعين الاقتصادي والاجتماعي بهجر الأراضي والحقول وترك الممتلكات وافتقار كثير من الأسر نتيجة لذلك[49].

كما تسبب وباء 1817 – 1822م الذي اجتاح البلاد في إخلاء ثلثي منازل مدينة عنابة، واضطر سكان مدينة جيجل إلى مغادرة المدينة أمام اشتداد المرض[50].

ج – اندثار الأسر وتغير القوانين العرفية: إضافة إلى أثار وباء الطاعون على النمو الديمغرافي، فإنه تسبب في تحولات جذرية في نمط حياة بعض القبائل، حيث اندثرت بعض الأسر والقبائل بأكملها[51]، كما هو الحال مع قبيلة الأمجاد الغنية ذات المكانة المرموقة والذين سمي طاعون 1786م نسبة إليهم "**حبوبة الامجاد**" بعدما أفناهم عن أخرهم[52]. ضف إلى هذا كله أن الوباء طرح مشكلة الإرث، سواء على مستوى المدن أو

الأرياف، وهذا ما ذكره حمدان خوجة الذي قال: « وفي زمن الطاعون كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى، فهي التي تقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على تجنب الفوضى، التي تتسبب فيها كثرة الوفيات، كما أنها التي تتولى التركات المهملة، وتقوم بعمليات الميراث.»، لدرجة أن اضطرت بعض قبائل جرجرة نتيجة الوباء إلى إعادة النظر في قوانينها العرفية المتعلقة بقضية الميراث، وأحسن دليل على ذلك عندما تعرضت منطقة القبائل للطاعون عام 1818م اجتمع سكان قرية بني يني ليتدارسوا الأمر في قوانينهم العرفية المتعلقة بمسألة الإرث، واتفقوا بالإجماع على ما يلي:

"إذا توفي رجل ولم يترك إلاَّ البنات، والأخوات، والأم، والأرملة، فكلهن يستفدن من ثلث تركة المرحوم، شريطة أن تبقى أرملته في بيت الزوجية، وتقوم النساء بتسيير تركتهن كما يشأن"[53].

د – موت العلماء وتراجع المكانة العلمية: كان لوباء الطاعون الذي شهدته الجزائر بوتيرة مستمرة تأثير سلبي كبير على الجانب العلمي والعلماء، من ذلك أن طاعون سنة 1822م الذي قضى على سدس سكان إيالة الجزائر، أثر على مدينة معسكر وضواحيها، فبعدما كانت تشهد تاريخا حافلا بدأت مكانتها تتراجع بسبب هلاك الكثير من سكانها، ومنهم العلماء الذين كانوا من ضمن الضحايا كسيدي عبد القادر السنوسي بن دحو بن زرقة، وأخيه سيدي الهاشمي، وابن عمهم الفقيه مصطفى بن عبد الله صاحب فتح وهران[54]. ونرجح أن هذا السوء مسح الكثير من علماء الجزائر في تلك الفترة.

هـ – انعدام الأمن الاجتماعي وتعطيل الأنشطة العسكرية: أدى وباء الطاعون إلى استفحال ظاهرة اللصوصية في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، فقد كانت على سبيل المثال قبيلة عشاش في أقصى غرب بايلك الغرب الجزائري عاثت في الأرض فسادا بقطع الطريق، وهو ما استدعى تدخل الباي بإرساله حملة عسكرية على القبيلة فرقتها في

أرجاء البلاد، وكان هذا هو ذات الإجراء المتخذ ضد قبيلتي المهدية وأولاد علي بن طلحة اللتين حاولتا انتهاج نفس الطريق هذا من جهة[55].

ومن جهة أخرى أدى الطاعون إلى أن أصبحت الثكنات العسكرية خاوية على عروشها بعدما كانت تعج بالجنود جراء فتكه بالعساكر المرابطين بها، من ذلك طاعون سنة 1786م الذي انتشر في إيالة الجزائر وأدى إلى فراغ الثكنات العسكرية من جنودها وتعطيل النشاطات العسكرية، وقضى على عدد من كبار رجال البحر ما بين خمسين وستين رجلا، وهو ما ينعكس بشكل سلبي لا محالة على النشاط البحري للأسطول الجزائري الذي كان يعرف القرن 18م تراجعا رهيبا في نشاطه، لأن الوباء إذا أتى على مجموعة من البحارة أو رياس البحر كان ينتج عنه عسرا في إيجاد الطواقم البحرية أو استخلاف رؤساء البحر[56].

الخاتمة:

- عبر تاريخها شهدت البشرية العديد من الأمراض والأوبئة تظهر وتنتشر هنا وهناك، وهي أحد صور ولله في خلقه شؤون ومن أبرزها وباء الطاعون الذي أخذ حيزا واسعا في خارطة شعوب العالم، ولم تشذ الجزائر عن ذلك وتعرضت له مرارا.
- يعتبر وباء الطاعون مرضا دخيلا عن الجزائر، وكان المتسبب فيه الالتحاق بالخلافة العثمانية وجلب الوباء بهذا المتغير كون المشرق العربي من أهم بؤر المرض.
- الوضعية الصحية المزرية للجزائر العثمانية بإهمال القطاع وغياب تدابير الوقاية وأسلوب الحجر الصحي يعتبر من مسببات استفحال الوباء واتساع نطاقه، ضف إلى ذلك غياب النظافة العمومية في الأحياء والمدن وحالة السجون المتدهورة.
- من أهم تفسيرات الكبح الديمغرافي للجزائر العثمانية هذا الوباء، كما أنه خلخل النظم والأعراف بإبادة عروش بأكملها.

- ولم تقتصر أثار الوباء على المجتمع كمكون وإنما زاد من تراجع المعرفة لنفوق العلماء وتعطيل تطبيق بعض الأحكام الشرعية لاسيما الميراث، دلالة على النطاق الكبير للموت بسببه.
- علاوة عن كل ذلك يمثل الوباء فرصة للمجرمين لزيادة نشاطهم خاصة في ظل غياب الأمن إما لخلو الثكنات من الجنود الذين لقوا حتفهم أو للتخوف من الاصابة بالمرض مما سيعقد الأوضاع أكثر.

قائمة المراجع:

المؤلفات:

- بالحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- توفيق المدني أحمد: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

الأطروحات:

- بوحجرة عثمان: الطب والمجتمع خلال العهد العثماني 1519 – 1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: محمد دادة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2014 – 2015م.
- سعيدي خير الدين: المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700 – 1830)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، إشراف: قدادرة شايب ، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، 2018 – 2019م.
- شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عمار بن

خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005 – 2006م.

- صحراوي كمال: أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف: دحو فغرور، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة وهران، 2012 – 2013م.
- علامة صليحة: الأحوال الصحية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي من 1830 إلى 1962 عمالة الجزائر نموذجا دراسة تاريخية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: مبخوت بودواية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2016 – 2017م.
- مسعودي أحمد: الحملة الفرنسية على الجزائر والمواقف الدولية منها 1792 – 1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: تلمساني بن يوسف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2009 – 2010م.
- موساوي قشاعي فلة: الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518 – 1871م)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: ناصر الدين سعيدوني، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003 – 2004م.

المقالات:

- الزين محمد: نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، عدد 17، 2012م.

- غطاس عائشة: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة، العدد 76، أوت 1983م.
- محمود حمد المشهداني مؤيد، م م سلوان رشيد رمضان: أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518 – 1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد 5، العدد 16، نيسان 2013م.
- موساوي قشاعي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية ودوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، 2001م.

الهوامش:

[1] صليحة علامة: الأحوال الصحية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي من 1830 إلى 1962 عمالة الجزائر نموذجا دراسة تاريخية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: مبخوت بودواية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2016 – 2017م، ص ص 159 – 161.

[2] أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 – 1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005 – 2006م، ص 283.

[3] عائشة غطاس: الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الثقافة، العدد 76، أوت 1983م، ص 124.

[4] **الجاسوس بوتان**: مهندس عسكري أرسلته الحكومة الفرنسية في عهد الامبراطور نابليون بونابرت إلى الجزائر في مهمة تجسسية سرية عام 1808م لإعداد مشروع غزو، ووصل بوتان إلى الجزائر في 24 مارس 1808م على متن سفينة حربية تسمى لوريكان، وقد تمكن من جمع معلومات هامة عن أحوالها وأوضاعها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ينظر: أحمد مسعودي: الحملة الفرنسية على الجزائر والمواقف الدولية منها 1792 – 1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: تلمساني بن يوسف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2009 – 2010م، ص ص 15.

[5] صليحة علامة: مرجع سابق، ص 161.

[6] **صالح رايس**: هو من أصحاب خير الدين بربروس، عرف بالجهاد، وامتاز بقيادته الحكيمة في البحر ومواقفه البطولية في البر، تولى منصب البايلرباي مدة أرع سنوات 1552 – 1556م، ومات بالطاعون في جوان 1556م. ينظر: أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 137 ، 366.

[7] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 283.

[8] مؤيد محمود حمد المشهداني، م م سلوان رشيد رمضان: أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518 – 1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد 5، العدد 16، نيسان 2013م، ص، ص 411 ، 434.

[9] صليحة علامة: مرجع سابق، ص 160.

[10] فلة موساوي قشاعي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية ودوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات إنسانية جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، 2001م ، ص 142.

[11] فلة موساوي قشاعي: ص 144.

[12] فلة موساوي قشاعي: ص 138.

[13] فلة موساوي قشاعي: ص 143.

[14] مؤيد محمود حمد المشهداني، م م سلوان رشيد رمضان: مرجع سابق، ص 434.

[15] عثمان بوحجرة: الطب والمجتمع خلال العهد العثماني 1519 – 1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: محمد دادة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2014 – 2015م، ص 47.

[16] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 290.

[17] صليحة علامة: مرجع سابق، ص 160.

[18] صليحة علامة: مرجع سابق، ص 163.

[19] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 129.

[20] فلة موساوي قشاعي: مرجع سابق، ص 134.

[21] مؤيد محمود حمد المشهداني، م م سلوان رشيد رمضان: مرجع سابق، ص 434.

[22] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 125.

[23] **حسن أغا:** عمل نائب البايلرباي خير الدين بربروس على إيالة الجزائر، انهمك في توطيد الأمن ووضع أسس الإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية، ومع ذلك لم يهمل أمر الغزو والجهاد، ولم يترك الاسبانيين في راحة على متن الحوض الغربي من البحر المتوسط، بل كانت الوقائع والمغامرات البحرية متوالية في عهده، ومن معاركه معركة جبل طارق في الأندلس في خريف 1539م، ومات حسن أغا خلال سنة 1544م. ينظر: أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص، ص 279 ، 317.

[24] فلة موساوي قشاعي: الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518 – 1871م)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: ناصر الدين سعيدوني، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003 – 2004م، ص 52.

[25] فلة موساوي قشاعي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، مرجع سابق، صص 139 - 140.

[26] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 283.

[27] فلة موساوي قشاعي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، مرجع سابق، ص 140

[28] **الرحالة المغربي أبو سالم العياشي 1628 – 1679م:** من قبيلة ايت عياش قرب تافيلالت، تنقل في المشرق وأقام بعواصمه طلبا للعلم، ويعتبر العياشي محدثا وصوفيا وعالما وشاعرا، واشتهر برحلته الضخمة التي سماها "ماء الموائد" التي ضمتها أخبار وحوادث مختلفة شاهدها أو سمعها أثناء أسفاره، وأهم ما فيها وصف طريق الصحراء والسكان والعوائد وأحوال المعاش والأمن والحديث عن العلماء والدين وأتعاب المسافرين، وقد خصص العياشي صفحات عديدة في الجزئين من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه ولعلمائه ولتاريخه. ينظر: مولاي بالحميسي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، صص 17 – 18.

[29] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 284.

[30] فلة موساوي قشاعي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، مرجع سابق، ص ص 140 - 141.

[31] خير الدين سعيدي: المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700 – 1830)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، إشراف: شايب قدادرة، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، 2018 – 2019م، ص 296.

[32] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 125.

[33] خير الدين سعيدي: مرجع سابق، ص 297.

[34] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 125.

[35] **الزياني 1743 1833م**: رحالة وأديب ووزير مغربي ولد بفاس وتعلم بها، هرب من المغرب نتيجة الفوضى السياسية فنزل بوهران ضيفا على الباي محمد الكبير ثن التحق بتلمسان ثم قصد الجزائر، وبعد مدة رجع إلى بلاده التي مات بها سنة 1833م، من أشهر مؤلفاته "الترجمانة الكبرى" التي تحتوي رحلاته خارج المغرب الأقصى. ينظر: مولاي بالحميسي: مرجع سابق، صص20 – 22.

[36] كمال صحراوي: كمال صحراوي: أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، اشراف: دحو فغرور، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة وهران، 2012 – 2013م، صص 175 – 176.

[37] عائشة غطاس: مرجع سابق، صص 125 - 126.

[38] فلة موساوي قشاعي: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، مرجع سابق، 141.

[39] صليحة علامة: مرجع سابق، ص 163.

[40] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 287.

[41] محمد الزين: نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، عدد 17، 2012م، ص ص 129 – 130.

[42] محمد الزين، مرجع سابق، ص 132.

[43] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 293.

[44] محمد الزين، مرجع سابق، ص 132.

[45] كمال صحراوي: مرجع سابق، ص 63.

[46] **الباي محمد بن عثمان الكبير**: كان والده عثمان الكردي حاكما لمليانة، ثم صار بايا للتيطري، وأمه تدعى زايدة أهداها سلطان المغرب الأقصى لوالده، كان محمد يلقب بالأكحل لسواد بشرته، عرف بكثرة الغزو للنواحي الصحراوية، ترأس بايلك الغرب عام 1779م، وتمكن من تحرير مدينة وهران سنة 1791م، وكانت سنة توليه منصب الباي سنة مجاعة سماها الناس عام الشر، كما ظهر الطاعون في عهده بعد سنوات المجاعة. ينظر: كمال صحراوي: مرجع سابق، صص 61 – 63.

[47] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 125.

[48] **عثمان بن محمد**: هو ولد الباي محمد الكبير، تولى بعد وفاة أبيه، وبعد ثلاث سنوات من حكم البايلك عزل ونفي إلى البليدة التي عاش بها عامين، ليعفو عنه ويقلد منصب باي قسنطينة، ولقى حتفه في ثورة ابن الأحرش. بنظر: كمال صحراوي: مرجع سابق، صص 64 – 65.

[49] كمال صحراوي: مرجع سابق، ص ص 176 ، 178.

[50] عائشة غطاس: مرجع سابق، ص 126.

[51] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 294.

[52] كمال صحراوي: مرجع سابق، ص 177.

[53] أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص 294.

[54] كمال صحراوي: مرجع سابق، ص 177.

[55] كمال صحراوي: مرجع سابق، ص 178.

[56] خير الدين سعيدي: مرجع سابق، ص ص 288 – 290.